أثر الانفجار السكاني في ثقافة القيم المقلوبة

أ. د. حسين جمعة

المشكلة السكانية مشكلة عالمية من دون شك، ولكن هذه المشكلة تأخذ طابعاً معقداً وصعباً للغاية عندنا. فعلماء السكان يحذرون من الانفجار السكاني وخطره على الجنس البشري؛ كما يحذر منه علماء البيئة وينذرون بأن خطر الانفجار السكاني على البيئة شديد للغاية، وكذلك حذر علماء الاقتصاد منه ورأوا فيه خطراً حقيقياً على الموارد الاقتصادية. أما علماء الاجتماع والنفس والثقافة فيذهبون إلى أنه كارثة كبرى على العلم والتقاليد والأخلاق والقيم والتربية و... لأنه استطاع أن يقلب كثيراً من قيم الحياة النبيلة.

فلو أخذ أحدنا الهند ــ مثلاً ــ لوجد فيها مأساة تتجسد على الأرض يراها الإنسان أينما ذهب، ولاسيما أن عدد السكان فيها قد بلغ حداً لا يطاق، ما أدى ــ في بعض المناطق ــ إلى انتشار المجاعة والفقر وإنتاج بيئة قذرة ملوثة، في الوقت الذي أدّى إلى نقص حقيقي بوسائل الصحة والتعليم، وإلى تدنٍّ ذريع في القيم التي نشأ عليها المجتمع الهندي، وكذا يقال في أي مجتمع آخر.

ومن ثم فإن الروابط بين الأُسر الغنية والفقيرة غدت تظهر بوجوه شديدة التناقض؛ وشرعت عوامل القهر والإذلال تظهر بأشكال شتى، فضلاً عن شيوع ظواهر اجتماعية وأخلاقية لا تنسجم مع كرامة الإنسان. إذن هناك مأساة حقيقية في الهند نتيجة ازدياد عدد السكان إذ كاد يتجاوز (مليار ومائتي مليون) وسيزيد في السنوات القادمة عن سكان الصين.

وأنا ما ضربت الهند مثلاً إلا لأنني رأيت بأم عيني حجم المشكلة على الأرض، فهناك كتل من البشر تسير في الشوارع وكتل من السيارات المتفاوتة الأنواع يرافقها سيل عَرِم من دراجات الفقراء، وكتل أخرى تسكن في أكواخ من الصفيح لا تملك من أساسيات الحياة ومقوماتها شيئاً، ما أدَّى إلى أن يزيد فقر الهنود فقراً على الرغم من الإمكانيات التي تملكها الهند وعلى الرغم من الدراسات التي تضعها الحكومة وتسعى إلى تحقيقها ولكنها جميعها تظل دون تلبية حاجات الطبقات الفقيرة، وتظل الحكومة عاجزة أمامها. ولن أتحدث عن ازدياد أعداد السكان التي تبلغ مرحلة الشيخوخة، دون أن تجد الحكومة حلاً مجدياً للشيوخ الذين فقدوا المعيل والمعين، ولن أتحدث عن المرأة المحرومة من الحقوق الطبيعية لها، ولا عن كثرة الوفيات في النساء والأجنّة والأطفال عند الولادة وغيرها لانتشار الجهل والمرض، لن أتحدّث عن ذلك كله ولكني أذكر بأن الهند بمساحتها وعلى الرغم مما تقوم عليه من كونها سلة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفيرة من الغذاء قد أخذت تبحث عن منقذ لأزمتها السكانية، ولكنها مازالت عاجزة أمام ذلك كله على الرغم من اتجاهها اتجاهاً علمياً وتقنياً لحل مأساتها.

وقد يتساءل أحد ما: لماذا أخذت الهند ــ مثلاً ــ ولم تأخذ الصين التي يبلغ تعداد سكانها نحو (مليار وخمس مئة مليون) ولكنها استطاعت القيام بتنمية شاملة أوصلتها إلى موقع متقدم صناعياً وزراعياً وتجارياً وصحياً واجتماعياً و...؟؟

وهنا بيت القصيد؛ فالصين اتبعت سياسة صارمة منذ خمسينيات القرن العشرين في شأن الانفجار السكاني، وإلا لكان عدد سكانها يزيد على مليارين ونصف، ولكانت مأساتها أعظم من مأساة الهند مهما كانت الموارد التي تملكها.

وحين نتحدث عن مشكلة الانفجار السكاني في الهند ينبغي ألا يغيب عن بالنا الانفجار السكاني في سورية إذ بلغ عدد سكانها نحو (١٨) مليوناً على حين كان في خمسينيات القرن العشرين نحو (أربعة ملايين). وهذا لا يعني ــ لدينا ــ أن أثر الانفجار السكاني قد بلغ مبلغ الأزمة كما هي عليها في الهند، ولكن هذه المشكلة بدأت تظهر على السطح وفق ما يسمَّى النسبة والتناسب ووفق مساحة الدولة وحجم مواردها. ونحن إذ ننبه على هذا لا ننسى أننا ننتمي إلى أمة لها عقيدتها وأخلاقيتها وعاداتها الإنسانية الرفيعة، علماً بأن التزايد السكاني المطرّد إذا ما استمر على الوتيرة التي نشهدها فسنصل إلى أزمة حقيقية على مختلف الصُّعُد لا تقل مأساة عما هي عليه في الهند.

وهنا يتساءل متسائل آخر: كيف نتحدث عن مشكلة التفجر السكاني، على حين أن ظاهرة (العزوبية والعنوسة) في ازدياد مستمر حتى كادت تبلغ مشكلة في الوطن العربي نسبة ٥٠% من عدد الشباب وهي كذلك في سورية؟

ولعل هذه الظاهرة تؤكد لنا أن سببها إنما يكمن في الزيادة السكانية التي أنتجت تلك الظاهرة حتى وصلت إلى تلك النسبة المخيفة؛ ومن ثم ارتبطت بها مشكلات أسرية وأخلاقية عدة. فالموارد الاقتصادية باتت عاجزة عن تلبية طلبات هؤلاء الشباب؛ فضلاً عن عجز التخطيط لحل تلك المشكلة حتى الآن.

ونقول لهذه الشريحة الكبيرة: يمكن حل المشكلة بالزواج مع تنظيم دقيق لعدد أعضاء الأسرة، بل بقرار شجاع على عدم الإنجاب إلى أن تتوافر الإمكانيات المطلوبة لتكوين أسرة منظمة العدد؛ ويمكن لهذه الشريحة أن تتخلى عن الأحلام الخيالية في السكن الفاخر والسيارة الفارهة، وأن تخطط للقبول في العيش ضمن الأسرة الكبيرة، كما كان الأجداد يفعلونه؛ إلى أن تتوفر الموارد وتُرَشَّد في الاتجاه الصحيح.

ومن هنا نتجه إلى مشكلة اجتماعية واقتصادية في آن معاً تتجلى في كثرة ظاهرة الطلاق بين الشباب المتزوجين مجدداً نتيجة القيم الجديدة التي غزت مجتمعنا، ولاسيما حين تصرّ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعض الأسر أو الفتيات على بيت سكن شرعي مستقل مهيأ بكل أسباب الرفاهية، وربما ينصاع الشاب طالب الزواج في البداية لرغبات تلك الأسر، أو رغبة فتاته المعشوقة. وحينما يواجه الزوجان الواقع الصعب، نتيجة عدم الخبرة والصبر، وعدم مواجهة ذلك الواقع بجرأة وشجاعة ووعي فإن الطلاق حادث لا محالة.

فالزوجان في البداية ــ وبعد مرور تجربة العسل ــ سيكتشف كل منهما الآخر، وربما يكتشفان أن بينهما غربة اجتماعية وقيمية فضلاً عن المعضلة الاقتصادية، وبدل أن يحلا معاً تلك المشكلات تتفاقم فيما بينهما، وتزداد تعقيداً إذا ما نتج عن علاقتهما وَلَدٌ أو أكثر، فبعض الزوجات لا يهمهن من الزوج إلا الجانب المادي، أو لا يردن من الزوج إلا أن يظل عشيقاً فقط كما رسمته مخيلاتهن في البداية. وكذلك يرى بعض الأزواج من الذكور أن على المرأة أن تظل المرأة الجميلة العاشقة له، فإذا ما فقدت شيئاً من صفاتها تلك انقلب إلى (دون جوان) وشنَّ حملة على الطهارة والبراءة التي ينبغي للأسرة أن تبنى عليها.

ولذلك كله تصبح ثقافة القيم المقلوبة جزءاً لا يتجزأ من المشكلات الاجتماعية الناتجة ــ أصلاً ــ عن الانفجار السكاني وتبدّل القيم الأخلاقية والاقتصادية في مجتمعنا.

وعلينا جميعاً مسؤولين وكتاباً وإعلاميين وفنانين وصحفيين ومربين واجتماعيين... أن نكثف الجهود ونتعاون لتحقيق تنظيم حقيقي للتوالد، وهو تنظيم يتوافق مع عقيدتنا، وعلينا أن نخطط تخطيطاً علمياً لزيادة الوعي الاجتماعي بحجم المشكلات التي ترسَّخت تاريخياً في الواقع، من (زواج الأقارب) إلى مبدأ (الكثرة عزوة)، وان نفعل دور المرأة، وأن نزيد مهارتها على التفكير المبدع والإدارة والتسويق في التخطيط والإسهام الحقيقي في بناء المجتمع علمياً وتربوياً واقتصادياً وسياسياً و... فالمرأة صانعة للحياة، في حين أنها أداة إنتاج قوية فإذا لم تتسلح بالوعي فقدت مهمتها الأصيلة في عملية الإنتاج والبناء وهنا يكمن دور المؤسسات المختلفة جميعها للإسهام في ذلك كله.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com